مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 20 (2014) : 147 – 161
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الرواية رمز معرفي لمفهوم التاريخ
مقاربة ابستمولوجية في مدون الطبري(ت310هـ/923م)

د/ طاهر بن علي

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

توطئة :

إشكال كبير يراودني وأنا أباشر البحث في الكتابات التاريخية الإسلامية، يطرح عليّ سؤالا ملحّا حول مفاهيم التاريخ التي كان المؤرّخون المسلمون يستصحبونها في كتاباتهم، وينطلقون منها في تحرير النصّ التاريخي. وحول هيمنة المادّة المعجمية على المنطلقات في توجّهات هذه الكتابة. فأرسلت النظر في المدوّن التاريخي الإسلامي لكي استجلي الإجابة على هذا السؤال، وكان الطبري(ت310هـ/923م) أحد الأساطين الذين لا يمكن لدراسة مثل هذه أن تتجاوزه للمعنى المعرفي والزمني الذي يحمله مدوّنه.

المادّة المعجمية ومفهوم التاريخ

كان الجوهري حاضرا في كتب التاريخ من بعده ليس على أساس الرواية عنه أو الرواية له، و لكن على أساس أنّه أوّل من أعطى للتاريخ مادّة معجمية، فهو أوّل من أعجم التاريخ في المدوّن. وهكذا صار الباحثون عالة عليه، بل صارت المعاجم تدور على محوريته. قال في الصحاح: "التأريخ: تعريف الوقت. والتوريخ مثله. وأرّخت الكتاب بيوم كذا، وورّخته، بمعنى"[1].

ثمّ أتى أبو منصور الجواليقي المتوفّى سنة (540هـ/1145م)، ليؤرّخ للمادّة المعجمية ليس من خلال تحديد زمني محض، وإنّما بتحديد لغويّ جنسي[2]، وأعاد المادّة إلى إطار ثقافي معيّن ليستدرك المعنى المطلوب من الثقافة، وليس من البناءات الجذرية في اللغة.

قال: "ويقال إنّ التأريخ الذي يؤرّخه الناس ليس بعربي محض وأنّ المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب. وتأريخ المسلمين أرّخ من سنة الهجرة، وكتب في خلافة عمر رضي الله عنه فصار تاريخا إلى اليوم. وقيل إنّه عربي واشتقاقه من الإرخ، وهو ولد البقرة الوحشية إذا كانت أنثى، بفتح الهمزة وكسرها، كأنّه شيء حدث كما يحدث الولد...ويقال إنّ الأرخ الوقت، والتأريخ كأنّه التوقيت "[3].

وفي كتاب معجم مقاييس اللغة لابن فارس، وهو كتاب ذو أهمّية في الدراسات اللغوية، حيث المادّة المعجمية منه قائمة على الأصل في بناء الكلام. فكلّ لفظ لم يأت من هذا الأصل فهو من الدخيل، وكلّ لفظ احتوى على حروف الأصل، ولم يذكر فيه، فهو من المعرّب. يقول مبيّنا ذلك: "أرّخ: الهمزة والراء والخاء كلمة واحدة عربية، وهي الإراخ لبقر الوحش، قالت الخنساء:

ونوح بعثت كمثل الإر اخ آنست العين أشبالها

وأمّا تأريخ الكتاب فقد سمع، و ليس عربيّا و لا سمع من فصيح "[4].

وأورد صاحب لسان العرب المادّة السابقة في كتابه فقال: "التأريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله. أرّخ الكتاب ليوم كذا: وقّته، والواو فيه لغة، وزعم يعقوب أنّ الواو بدل من الهمزة، وقيل: إنّ التأريخ الذي يؤرّخه الناس ليس بعربي محض، وإنّ المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب..."[5].

إنّها المادّة نفسها، لم يزد عليها، وهذا دليل على أن ليس في البناءات اللغوية المزيد في عصره، رغم أنّ العلوم كانت قد توسّعت، والمعارف انتشرت واشتهرت، وصارت لها غلبة على فكر الناس واهتمامهم. والمدوّن في العلوم تأثّر بعموم الثقافة. وهذا له دلالته في تقصّينا لتاريخ اللفظة، وانتشار الفنّ.

وحاولت في كتاب تاج العروس من جواهر

القاموس للزبيدي وهو خلاصة التأليف المعجمي[6]الذي استوفى المادّة جمعا واستدراكا، أن ألحظ تطوّر المادّة المعجمية لنتتبّع تطوّر مفهوم التاريخ، أو أجد صبغة الصنعة التاريخية، غير أنّني لم أعثر على جدوى.

جاء فيه: "أرخ الكتاب، بالتخفيف، وقضيّته أنّه كنصر، وأرّخه بالتشديد، وآرخه بمدّ الهمزة: وقّته، أرخا وتاريخا ومؤارخة. ومثله التوريخ ... وقال الصولي: تاريخ كلّ شيء غايته ووقته الذي ينتهي إليه، ومنه قيل: فلان تاريخ قومه، أي إليه ينتهي شرفهم ورياستهم... وفي المصباح أرّخت الكتاب إذا جعلت له تاريخا.."[7].

ولست أدري إن كانت المعاجم قد كنفت مادّتها الأصلية فلم تحفل بمتركّب الألفاظ الناتج عن ديناميكية العلوم والفنون، أو أنّ هناك انقطاعا في تفاعل المدوّنات بمتولّد الأفكار. أو أنّها بقيت بمنأى عن التأثير المنهجي والفلسفي لمستحدث المعارف المتوثّبة إلى العلمية بالمناهج، والمنطلقة من التأسيس اللغوي. أو أنّها لم تحدث التماس المعرفي الذي يحدث التوتّر الانفعالي لينتج التطوّر الحاصل ابستيمولوجيا لدى العلوم والفنون.

هذا الذي ذكرنا نبلوره إشكالا ندفعه إلى خضمّ المسألة التاريخية المعرفية، ليحدث تكوير اللغة على المعارف والعلوم، من أجل أن يبعث المادّة المعجمية بتاريخية حيّة ومتفاعلة مع المعطى الثقافي عامّة، والمعطى العلمي خاصّة. وأن يكون ملمحا لتطوّر الرؤى المعرفية للعلوم.

الكتابات التاريخية وهيمنة المادّة المعجمية

استلهم الصفدي(ت764هـ/1363م) التوجّه المعرفي الذي فرضته حركية المعجمية[8]، فاعتمد مستند اللغة ومادّة المعجم ليحرّر التاريخ معرفة. وجاءت مقدّمة كتابه الوافي صياغة تكوينية لمعرفة معجمية بحتة، وكان المترادف فيها من بناءات الألفاظ، لا من تأسيسات العلوم، ومن خلاصات اللغة، لا من حركية المناهج[9]. وتراكم المدّ اللغوي في توجّهات الكتابة نحو التكوين المعرفي، لا من قبيل التأسيس المصطلحي[10]، ولكن من قبيل انسحاب المفهوم من عموم اللفظ إلى خصوص المنهج.

وحاول السيوطي(ت 911هـ/ 1505م) في رسالته الانفلات من هيمنة المادّة المعجمية باسطا يده إلى الجديد كما زعم[11]، لكنّه لم يبلغ بها المعنى المستلزم للتاريخ. ولم يسطع أن يقدّم بين يدي تسميته التاريخ علما بما يقتضيه المنهج في تعريف العلوم وتأسيس بنائها المعرفي، فجاء معنى العلم في رسالته المعرفة، وساق التاريخ أداة لعلوم أخرى، أهمّها علم الحديث الشريف، وهكذا لم يختلف عن سابقيه ومعاصريه، واتّسق معنى التاريخ عنده معجميّا فكان التوقيت[12].

وكانت هذه المادّة المعجمية[13]المستند الذي اتّكأ عليه السخّاوي(ت902هـ/1497م) في مقدّمة كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، من أجل أن ينطلق إلى تأسيس معرفي لمصطلح التاريخ، ولإحداث التماس بين المعرفة الناتجة من اللغة والمعرفة الناتجة من حركية العلوم. لذلك عرض المادّة المعجمية بمختلف مظانّها ومصادرها، ورتّبها لكي يكون المعنى العربي أقرب إلى مقاربته، ثمّ ليربط المفهومية من المعنى المذكور عند العرب مع مفهومية التاريخ في زمانه لتناسب المعنى الدلالي والاصطلاحي.

قال السخّاوي: "وفي الاصطلاح التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمّة، ووفاة، وصحة عقل و بدن، ورحلة وحجّ، وحفظ، وضبط، وتوثيق، وتجريح. وما أشبه هذا من الحوادث، والوقائع الجليلة، من ظهور ملمّة، وتجديد فرض وخليفة ووزير، وغزوة، وملحمة، وحرب، وفتح بلد وانتزاعه من متغلّب عليه، وانتقال دولة. وربما يتوسّع فيه لبدء الخلق، وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية، وأحوال القيامة ومقدّماتها..."[14].

واستدرك بعد ذلك ليتجاوز حدود التعريف المعجمي، ويعطي لمفهوم التاريخ المعنى المعرفي متجاوزا بساطة التوصيف الذي ذكره في البداية، وهو نفسه الذي أحدثته المعاجم، فقال: "وأمّا موضوعه فالإنسان و الزمان، و مسائله أحوالهما المفصّلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان. وأمّا فائدته فمعرفة الأمور على وجهها ومن أجلّ فوائده أنّه أحد الطرق التي يعلم بها النسخ في أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما.[15]

ورغم هذا الاستدراك إلاّ أنّ السخّاوي الذي لامس بعض إهاب التاريخ حينما أعلم عنه بتحديد موضوعه، ثمّ بذكره لأهمّ عناصره؛ الإنسان والزمان[16]، لم يستطع أن يتجاوز حدود النظرة التقليدية للتاريخ التي تجعله ضمن سياق منظومة ثقافية ومعرفية عرفها العرب قديما، ثمّ استصحبوها بعد ظهور الإسلام، وبروز ميادين علم جديدة.

اتّجاه الرواية في كتابة التاريخ

ولا يعدو السخّاوي بهذا أن يكون استمرارية لمنهج قديم سيطر على مفهوم التاريخ العملي، حيث لم ينظر في التاريخ إلاّ كونه من سياقات المرويات التي ارتقت بها الأحاديث النبوية من مجرّد موروث ثقافي عرفه العرب، وارتبط بأيّامهم وشعرهم[17]، إلى علم له أسسه العلمية الدقيقة التي ترقى في اليقين العلمي إلى درجة المخبريات أو تفوقها. وبها كان للأمّة الإسلامية علم لم يكن لغيرها، من حيث كونه باحث في صحّة المرويات بأساليب دقيقة، هي من تشوّفات العلم، ومن

تطلّعات المعرفة.

واتّجاهات كثيرة لتخليص التاريخ المروي من التداول اليومي لترقى به إلى العلمية، من حيث اعتماده والبناء عليه، تسعى لإيجاد المنهج بالأساليب الحديثة حتّى يؤطّر بين اليقين والصحّة، ليكون[18]رديف التاريخ المكتوب في تأسيس المعرفة التاريخية[19].

نتلمّس هذا الاتّجاه في مدوّنات القدماء، فبعضهم صرّح بذلك في مقدّمة كتابه، وبعض آخر نلمحه في المنهج المسيطر على موضوعاته. فابن خيّاط[20] لم يذكر شيئا من ذلك، وجاءت مقدّمته مقتضبة، قال فيها:" هذا كتاب التاريخ، وبالتاريخ عرف الناس أمر حجّهم وصومهم، وانقضاء عدد نسائهم، ومحلّ ديونهم "[21].

وهذا المعنى للتاريخ الذي يتعامل به ابن خياط مع مادّته، هو المعنى نفسه الذي ذكرته المعاجم، حيث التاريخ هو التوقيت. ولمّا كان هذا المعنى حاضرا كان المنهج المناسب بسياق علوم الناس يومها، وبسياق المعنى المراد، فجاء أغلب تاريخه مرويات عن الأحداث[22]، والباقي جاء على شكل تقريرات حولية[23]، وكتابة مرسلة.

المعطى المنهجي في مدوّن ابن جرير الطبري

وممّن صرّح بمنهجه في مقدّمته ابن جرير الطبري (ت310هـ/923م)، الذي ذكر طريقته في الكتابة فقال: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ اعتمادي في كلّ ما أحضرت ذكره فيه، ممّا شرطت أنّي راسمه فيه إنّما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس "[24].

ثمّ بيّن الداعي إلى ذلك من ضرورات العلم فقال: "إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم، إلاّ بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس"[25].

وأردف ذلك ببيان حجّته إذا قامت في وجهه الانتقادات، من حيث كون الروايات التي أوردها قد تحمل ما لا يتقبّله العقل، فقال: "فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ممّا يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنّه لم يعرف له وجها في الصحّة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنّه لم يؤت في ذلك من قبلنا و إنّما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، و إنّما أدّينا ذلك على نحو ما أدّي إلينا"[26].

تمثّلات الباحثين لمنهج الطبري

من خلال هذا الذي ذكر، يرى أحد الباحثين أنّ الطبري" يسير في نقده على طريق المحدّثين فيصبّ تمحيصه وتأكيده على الإسناد أي سلسلة الرواة "[27]. ولكنّه ما يلبث أن يؤكّد أنّ "الطبري لا يوجّه اهتمامه لنقد المتن، أي للنقد الداخلي للرواية وإنّما للنقد الخارجي أي الرواة "[28].

ويجعل آخر الطبري في المحدّثين الملمّين بالتاريخ، والنهج عندهم أنّ "الروايات التاريخية لديهم كانت تتصدّرها الأسانيد كما هو شأن الأحاديث ممّا ساعد على تحقيق الأخبار، فقيمة الخبر أو الرواية تعتمد على راويها من ناحية حدّه ودقّته وصدقه وصلته بالحوادث"[29].

وفي سبيل مشابه يؤكّد آخر أنّ الطبري "اهتمّ بالإسناد اهتماما كبيرا، وجعل نقده منصبّا على هذا الأساس، فقوّة الرواية وضعفها تعتمد في أغلب الأحيان على أسانيدها... فبيّن الطبري أنّ العهدة في صحّة الخبر على من روى الحادثة، وهو بذلك متأثّر، ولا شكّ، بطريقة المحدّثين الذين أقاموا النقد على الإسناد ولم يناقشوا المتن إلاّ في القليل النادر "[30].

وبلغ الحدّ في تمثّل منهجه في كتابة تاريخه أن كتب أحدهم: "ولعلّنا نذهب إلى أنّ الطبري قام في التاريخ بعمل مشابه لما قام به البخاري ومسلم في الحديث : اختيار المادّة التاريخية الصحيحة من مجموعة المادّة التي تقدّمها كتب المدائني وغيره".[31]

وربّما التبس على الباحثين في كلّ ما أوردوا ما ذكره السبكي ضمن قاعدته في المؤرّخين حينما أورد شروط نقل الخبر التاريخي، فكانت مماثلة لشروط نقل الحديث، فجعل ذلك بيان لحال المؤرّخ المشاكل لحال المحدّث. والحقيقة أنّ من يتناول رسالة السبكي يجد أنّه أورد كلّ ذلك ضابطا، ولم يورده حكاية عن منهج. وقد جاء في أوّل الرسالة الدافع إلى إيراد الضابط حيث "الجهل في المؤرّخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل وكذلك التعصّب، قلّ أن رأيت تاريخا خاليا من ذلك"[32].

والحقيقة أنّ كلّ الذي ذكروا لا يستقيم مع منهج المحدّثين الذين يمحّصون السند كما يمحّصون المتن[33]، أي يباشرون النقد الداخلي كما يباشرون النقد الخارجي[34]. ومن تخصّصات علوم الحديث ما يسمّى علل الحديث، وهو الفرع الذي يدرك به صحيح الحديث من سقيمه، من حيث المتن، لا من حيث السند[35].

ويبالغ آخر حينما يجعل أهمّية كتاب الطبري كامنة في "أنّه كان مثالا للصرامة والدقّة المنهجية...حيث طبّق منهج الإسناد تطبيقا صارما في مجال التاريخ. ولكي يحدث ذلك كان لابدّ له أن يصوغ كتابه على أساس الخبر من ناحية، وعلى أساس الجدارة الأخلاقية لمن نقل الخبر من ناحية أخرى"[36].

نقد تمثّلات الباحثين

وأرى أنّ الباحثين أصابهم الارتباك الذي أصاب الطبري من قبل. فليس منهج المحدّثين هو الذي سيطر على المؤرّخ، ولكن سيطرت عليه سياقات المرويات التي طبعت المعرفة في ذلك الوقت[37]، وكان منها الحديث النبوي الذي رقي بمنهجه إلى يقينيات المعطى

المعرفي، بينما قبعت ميادين أخرى حبيسة الرواية التقليدية[38].

وللدلالة على الارتباك الحاصل عند الباحثين المعاصرين حول منهج الطبري، قول أحدهم: "وقد تأثّر الطبري في هذا الكتاب بأسلوب المحدّثين، الذي كان من أكبرهم في عصره، ولعلّ أبرز ما ظهر على أسلوب الطبري في هذا التاريخ من أثر المحدّثين ذكره الروايات المختلفة والأخبار التاريخية، وقد تمكّن ببراعة من الربط بين هذه الروايات المختلفة"[39].

وعدم التحقيق واضح في كلام الباحث، وهو دليل على أنّ كتابات كثيرة تنقصها الدقّة في توصيل المعلومة، مع أنّ منهج التاريخ جاء ليؤكّد صحّة الحدث وصلته بالزمان والمكان. كما يدلّ على أنّ بعض الباحثين يخلطون في أحكامهم، وذلك من جهلهم بالمناهج المتخصّصة، مثل علوم الحديث ومصطلحه، ويعقدون الصلة بين المناهج لمجرّد تشابه عرضي.

إنّ الباحثين الذين لم يحاولوا فهم منهج المحدّثين، ولم يحدثوا المقاربة المنهجية لعلومهم، لا يستطيعون تصنيف المؤرّخين ضمن حوزتهم، إلاّ من خلال إسقاط منهج علماء الحديث على كتاباتهم التاريخية. وهذا وصف عام يحدث صورة من الشبه والاقتراب، ولكنّه لا يمنح اليقين المنهجي الذي تتوسّله الدراسات المعاصرة[40].

والنظر المتبصّر بالابستمولوجية في تدقيقات منهج المحدّثين يمكّن من مزايلة الأسس النقدية المحمولة بالمنهج[41] في تحقيقاتهم للنصّ النبوي، والأثر المترتّب عليه، لخصوصه في الورود، عن الأسس النظرية الملحوظة بتقريرات المؤرّخين في كنه التوجّه الزمني، لعمومه في إمكان الوقوع[42].

قواعد المحدّثين في قبول الخبر

والنهج الأمم عند المحدّثين[43]، توخّي تقديم الأخبار التي هي أسلم من العيوب، وأن يكون ناقلوها أهل استقامة في الحديث، وإتقان لما نقلوا، مع عدم وجود الاختلاف الشديد، والتخليط الفاحش[44]. فهو علم "مبني على الصدق، والعدالة، والتديّن، والتعقّل، والتيقّظ، والنزاهة"[45].

لذلك كان شرط البخاري ومسلم أن يخرجا الحديث المتّفق على ثقة نقلته[46]، حتّى قال البخاري: "أخرجت هذا الكتاب من زهاء ستّ مئة ألف حديث"[47]. وزاد بعضهم على شرط بعض[48]، دقّة في التخريج، وإمعانا في التصحيح[49]. وبيان ذلك من غير استنباط عقلي لهذه الشروط، أنّك لا تقرأ متن حديث في صحيح الترمذي إلاّ وأردفه معلّقا عليه محسّنا، أو مصحّحا[50]، أو مضعّفا[51].

ومنهج الإمام مالك الحديثي التحرّي والنقد، والعناية به رواية ودراية، وكان كثير التفتيش فيما يروي بعد روايته، حتّى إنّه ليسقط كثيرا ممّا رواه، لعيب اكتشفه في الراوي أو لشذوذ في الحديث، أو نحو ذلك[52].

ولقد قيل: "وضع مالك الموطّأ وفيه أربعة آلاف حديث أو أكثر، ومات وهي ألف حديث ونيف"[53]، فما زال ينظر فيه كلّ سنة، ويسقط فيه، حتّى بقي هذا الذي روته الأجيال[54].

وكان حريصا على أن يكون الراوي الذي يروي عنه عدلا، ليس من أهل الهوى، ضابطا، فاهما لما يروي، وما ينبغي أن يعلم، ويعلن، وكان يتشدّد في فحص الرجال على مقتضى هذه الشروط، فلا يروي إلاّ عن ثقة في الغالب[55]. كما كان يحرص على سلامة المتن، وينفر من الغريب نفورا شديدا، مهما يكن حال روّاته[56]، حتّى "إنّ بعضهم وثّق رواة لا يعرفهم برواية مالك عنهم"[57]. ولقد سئل عن أحدهم فقال: "هل رأيته في كتبي؟...لو كان ثقة لرأيته في كتبي"[58].

يقول القاضي عياض: "كان إذا قيل له هذا الحديث ليس عند غيرك تركه، وإن قيل له هو ما يحتجّ به أهل البدع تركه. وقيل له إنّ فلانا يحدّثنا بالغرائب، فقال: من الغريب نفرّ. قال أبو مصعب: قيل لمالك: لم لا تحدّث عن أهل العراق. قال: لأنّني: رأيتهم إذا جاءونا يأخذون الحديث عن غير ثقة"[59]. ولذلك كانت أحاديثه في الموطّإ منتقاة، وعدّ أهل الفنّ كلّ ما فيه من الحديث صحيحا إلاّ قليلا[60].

فإذا استقرّ هذا بالبيان الناصع لسبل المحدّثين في إيراد الخبر[61]، تبيّن موضع الطبري من جموع أهل الحديث، وتبيّنت روايته من مجموع رواياتهم، واتّضح أنّه لا مجال إلى إدخاله في زمرتهم من حيث الصنعة وتميّزها. وتبيّن أنّ الذين أدغموه فيهم لم يستأنسوا بالأطر المعرفية لينظروا في تداخلها من غير تعارض، ولا تدافع. وهكذا تكون الرواية عند الطبري من سبيل مغاير، وإلى نهج معرفي معيّن.

المزايلة بين منهج المحدّثين ومنهج الطبري في إيراد الخبر

ولا أحسب أنّ الطبري قصد إلى ما قصد إليه الباحثون من أنّه ينتهج منهج المحدّثين، وإنّما قصد إلى أنّ معرفة الأخبار تواترت على هذا المنوال، وأنّ الإلمام بها يكون بتقصّي المرويات، وجمع الأخبار من مصادرها، مع المحافظة على السند الذي كان سمة العلم في ذلك الوقت. وإلاّ كيف خالف منهجهم في تدقيق محتوى المرويات؟، و"أغفل ذكر أسماء أسانيده، والمؤلّف، أو شاهد العيان لبعض مقتطفات معيّنه"؟[62].

ولسنا نجد في مرويات الطبري ما يدلّ على اتّجاه معرفي حديثي[63]، بل إنّ الشخصية الممتلئة باليقظة الابستمولوجية والمدركة للمحتوى المعرفي التاريخي ضمن مؤطّر الرواية زايلته في كثير من مواقع كتابه[64]. ثمّ إنّ الحضور المنهجي الواعي كان غائبا في مروياته[65]. و"كان يقف خارج الأحداث وخارج

الرواية نفسها في برود عقلي واضح، راميا منذ مطلع الكتاب عهدة كلّ أمر على روّاته"[66].

هذه العهدة على الراوي[67] – التي اتّخذها الطبري تكأة اتّكأ عليها في الاعتذار عن منهجه –[68] ليست بقائمة في منهج أهل الحديث، ولا هي من تأسيساته الخاصّة، ولو في حال العدالة. أمّا في حال الجرح[69] فهي منكرة متروكة[70]. ومبدأ - من أسند فقد أحال - لا يضفي على صاحبه صفة منهجية معيّنة تجعله في زمرة أهل الحديث، وإنّما يكون ذلك من قبيل ذكر السند للأمانة العلمية[71]. والأصل في رواية الحديث أن تكون بالصدق، والثقة، والعلم، وأداء اللفظ، والضبط، والاتّصال[72].

وانظر قياس ذلك بالإسقاط في إكثاره الرواية عن شيوخ الرواة[73]دون التفتيش في أحوالهم، وعن مجموعة من الرواة الذين لم يتبيّن عدالتهم، ولم يفصح عن جرحهم، منهم شعيب ابن إبراهيم[74]، وهو عند أهل الحديث "فيه جهالة"[75]، وطلحة بن الأعلم[76]، وهو عندهم نكرة[77].

ويزداد ابتعادا عن منهج المحدّثين في إكثاره الرواية عن سيف بن عمر[78]، وهو عندهم ضعيف[79]، متروك الحديث[80] باتّفاق[81]، يحدّث عن خلق كثير من المجهولين[82]، ويروي الموضوعات عن الثقات[83]، ويضع الحديث[84]، حتّى اتّهم بالزندقة[85]، فكان كما قال يحيى بن معين "فلس خير منه"[86].

وفي ملمح ابستمولوجي نستند من هذا إلى أنّ الطبري يروي عن هؤلاء ضمن ثقافة سياقات المرويات المكوّنة للموروث المؤسّس على الوجدان، وعلى المعرفة المؤطّرة بالخبر، وأنّ النسق الأخباري[87]هو الذي كان مهيمنا على الرواية التاريخية[88]، وعلى التوجّه المنهجي فيها، وأنّ كثيرا من طرق التأريخ عند الطبري كانت من محمولات الأخباريين[89]، وليست من تدقيقات المحدّثين.

مرويات الطبري مستند المخالفين لمنهج المحدّثين في نقد الرجال

وكان الطبري المنجم الذي اشتغل عليه مرتضى العسكري حين أراد أن يفنّد مزاعم أهل السنّة والجماعة ويثبت من طريقهم أنّ عبد الله بن سبإ أسطورة. فخلص إلى ضرب رواية الطبري عن سيف بن عمر بقواعد الجرح عند المحدّثين، وأثبت أنّه إذا كان سيف مجروحا إلى درجة الترك فإنّ كلّ ما جاء عن طريقه باطل، وأنّ كتاب الطبري الذي هو معتمد أهل السنّة في التاريخ، يكون من محمولاته اللاتاريخ[90].

وأنا أزعم أنّ هذه حقيقة منهجية توصّل إليها الباحث من خلال منهج أقرّه علماؤنا في نقد الرواية، ولم يلتفت إليه الطبري الذي كان راوية ولم يكن محدّثا، فخرج بهذا من زمرة المحدّثين إلى جمهور الأخباريين، وكان تاريخه أقرب إلى كتب الأخبار منه إلى كتب الصحاح والمسانيد.

تقاطع رواية الطبري ورواية الشعر وأيّام العرب

لذلك يتأكّد ما ذكرنا من أنّ التاريخ لم يوضع موضع الرواية الحديثية المحرّرة وفق منهج نقدي أصيل، ولكن وضع موضع رواية الشعر والأيّام، وتأثّر باتّجاهات رواية الحديث[91]، ولم يتمثّلها تمثّلا منهجيا كاملا. فقد أكّد باحث آخر على أنّ الأدب امتزج بالتاريخ، وصار من المألوف أن يكون المؤرّخ راوية للأدب، وأن يكون راوية الأدب مؤرّخا[92]. وبيّن آخر أنّ التواريخ التي أوردوها هي من الشعر، أو محشوّة بالشعر[93].

ولم يكن هذا الامتزاج من باب اهتمام كلّ طرف بمعارف الآخر، ولكن كان من سيطرة سياقات المرويات على بسط المعارف، ونقل الثقافة. وتداخل الشعر ورواية أيّام العرب من حروب وانتصارات[94]، وتماهى الكلّ في صورة الثقافة المهيمنة على الفكر التاريخي السيكولوجي للأمّة، الذي سيطرت عليه السرديات الواردة ضمن المرويات[95].

والبحث المتحرّي يوجب علينا أن ننظر في بدايات هذه الفنون، وملاحظة التداخلات المعرفية والفنّية بينها، ثمّ تتبّعها في تشكّلاتها الزمنية المرتبطة بثقافة الأمّة، من أجل أن نتبيّن دور كلّ فنّ في تكوين العقل والوجدان.

ونحن نعلم أنّ التجريب والتدقيق العلمي لم يكن قد قام حينئذ[96]، وأنّ المتكوّن المعرفي وقتها هو مجموع فنون يتناوب فيها السرد والشعر ليصنعا معرفة التوصيل، وهي معرفة وصفية في أغلبها. وكان "كثرة من الإخباريين ورواة المغازي والسير يسمعون الشعر ويشاركون فيه ويحرصون على روايته"[97]، وهو ما صنع السياق الذي جاءت فيه روايات التاريخ التي اهتمّ بها المسلمون.

ولم تكن هذه الفنون بمنأى عن التأثير القبلي المهيمن على الاتّجاه العام للتاريخ والمحقّق للمعنى الأساسي في الوجود العربي، إذ أنّ "التأثيرات القبلية العائدة إلى العصر الجاهلي، والتي استمرّت في الحياة السياسية والاجتماعية الإسلامية تركت بصماتها أيضا على الكتابة التاريخية، وذلك انطلاقا من الاهتمام بالتاريخ للأنساب القبلية والوقائع وتماثلا مع أدب التفاخر بالأنساب وأيّام العرب في مرحلة ما قبل الإسلام"[98].

والطبري الذي وثّقه علماء الحديث، وعدّله أهل الجرح والتعديل[99]، إذ كان "عالما بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها"[100]، وألّف كتاب تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين[101]، وابتدأ بتصنيف كتاب تهذيب الآثار[102]، الذي قال فيه أحد نقّاد الحديث: "وهو من عجائب كتبه"[103]، ولم ير سواه في معناه[104]، لم يكن بمعزل عن هذا المنهج في تاريخه من

قبل التخلّي، ولكن من قبل موضعية سياقات المعرفة التاريخية في بنية الفكر العلمي آنذاك[105].

المحصّل المعرفي في منهج الطبري

وخلاصة الكلام في منهج الطبري أنّه "اعتمد في مادّته التاريخية على الروايات بنصّها الحرفي...بل غالبا ما كان يهمل تعديل هذه الروايات، كما يهمل تعديل هؤلاء الرواة، على عكس ما كان يفعل أحيانا برواة الحديث...أمّا التاريخ فلا تقام عليه أحكام شرعية، و هو بهذا المفهوم إخبار منضبط بتاريخ، فيكفيه ذكره لكلّ الروايات الخاصّة بحادثة تاريخية معيّنة..."[106].

من خلال المقاربة المعرفية للسخّاوي الذي رأينا أنّه امتداد للمنهج الذي سلكه الطبري من قبل، ومن خلال المقايسة بين التوجّهات في حيثيات إيراد المرويات عند المؤرّخين، مع إبراز التعريف الحاصل عند السخّاوي يتبيّن ذلك الخط من أنّ التاريخ هو التوقيت، تماما كما جاءت به المعاجم، وأنّ التاريخ في مدرسة ابن جرير هو من ضمنيات المرويات، جيء به للتدقيق الزمني. لذلك لم يحصل للتاريخ المعنى إلاّ من حيث الرواية[107].

وأحسب أنّ ذلك ما أعفى المؤرّخين من المساءلة المنهجية لعملية التأريخ حينما يباشرونها، أو المساءلة السيكولوجية لعملية إنتاج المعرفة منها، فغلب حال الراوي على حال المؤرّخ، أو تماهي التأريخ في الرواية، لذلك لم يفعم التاريخ بالمعنى إلاّ معنى الرواية المهيمنة على الخبر، والمسيطرة على توجّهات العلوم في ذلك الحين. فالطبري لم يحقّق من التاريخ إلاّ الرواية.

غير أنّ هذا الاتّجاه سيكون مشاكلا لمحاولة التاريخ في العصور الحديثة، وتكون بناءاته الروايتية أشبه بملمح التوثيق في الكتابة المعاصرة، وأوسع في التناول التجميعي لأحداث التاريخ. ولو أنّ الطبري لا "يذكر عند النقل من الرواة، عن أيّ كتاب من كتبهم ينقل، ولكثير منهم كتب تعدّ بالعشرات"[108]، إلاّ أنّ ذكر السند هو أحد أساسيات التوثيق.

بهذا التجميع الذي لا يشاكل تجميع المحقّقين من المحدّثين أعطى الطبري نموذجيته الرائدة في تحرير التاريخ، حيث كانت تمثّلاته للتاريخ تمثّلات روايتية[109]، وكان خضوعه المنهجي لها واضحا، إذ صارت المتكوّن الأوّل من التاريخ في ذهنية الطبري المؤرّخ[110]، لذلك كان تجميعه للخبر تراكميا، حسبما يقتضيه منهج الروايتي التوثيقي، ولم يحدث فيه التفضيل، فاتّسق على صورة القصص[111].

والمحصّل عندي "أنّ الطبري هو أهمّ مؤرّخ في تاريخ البشرية على الإطلاق[112]. حيث لا يمكن لأيّ مؤرّخ الاستغناء عن موسوعته التاريخية. إنّها تبيّن بأنّ درجة الوعي التاريخي[113] كان قد وصل في تلك الفترة إلى درجة فائقة من التطوّر. لقد اهتمّ الطبري بجمع كلّ ما وجد من وثائق تاريخية، ضمّنها عمله التاريخي دون أن يشوّه منها[114] لتتّفق مع موقفه السياسي، ووضعه الاجتماعي"[115].

لقد حقّق الطبري بمنهج تطبيقي رائع ما صار معضلة منهجية في العصر الحديث، وأثبت بطريقة ابستمولوجية كيف ينشأ التاريخ من الوثيقة، وكيف يسلك المؤرّخ سبيله من وثيقة تاريخية إلى تاريخ وثائقي.

إنّ مقدّمته التي ربطها البعض بمنهج المحدّثين وظلموا بها الطبري أكثر ممّا أزجوا له من الاحترام، كانت إيماءة دقيقة إلى منهج محترم في فهم دقيق لمحاولة التاريخ المؤسّسة على المرجعية النصّية[116]. والنصّ في الأحداث وثيقته، ووثيقة التاريخ الإسلامي رواياته.

والرواية ونقد الرواية، هو منهج له أصوله، وله تأسيساته، وهو نوع من تحرير النص التاريخي. غير أنّه لا يمكن أن يكون نصّا كاملا. إنّه مرحلة من مراحل تحقيق وثائق التاريخ[117]. وبهذا المفهوم يكون التاريخ هو الرواية، أو علم الرواية، وهكذا تكون الرواية مهيمنة على التاريخ منهجا، ومعرفة.

وقد كانت الرواية في الثقافة الإسلامية محاولة منهجية دقيقة لتحقيق المعنى اللازم للوثيقة. وأعطت صيغة معيّنة لتداول الحدث في وعاء شفهي متنقّل بضوابط الحفظ والأمانة[118]. ثمّ تحقّقت بالنسخ وثائق مكتوبة، كان جامعوها يمارسون دور التوثيق مع دور التأريخ.

خصوصية الطبري المنهجية

والطبري في خصوصية مميّزة تدرك بمقاربة ابستمولوجية، كان أرشيفيا أكثر منه مؤرّخا، ومنهج الحوليات في مدوّنه هو ضبط تصنيفي[119]لوثائقه المجموعة من وعاء الرواية.

ولخصوصيته الأرشيفية كان أهمّ مدوّنة في التاريخ، كما كان قاعدة التأريخ التي اعتمدها كثير من المؤرّخين من بعده، ونال بها الثناء والتقريظ. وفيه قال المسعودي: "وأمّا تاريخ أبي جعفر محمّد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلّفات، والزائد على الكتب المصنّفات، فقد جمع أنواع الأخبار، وحوى فنون الآثار، واشتمل على صنوف العلم..."[120].

إنّ الطبري الذي أدرك بعقله الفقهي أهمّية النص في الدلالة على معقولات الأمور، أدرك كذلك دور النصّ في إثبات مكوّنات الوقائع. وخشي إن تعمّد غير تجميع روايات[121] الأحداث أن يتجاوز بمنهج عصره، وقناعة نفسه حدود التاريخ، ويظلم من بعده، من الذين يهتمّون بالبحث التاريخي وصنوفه.

لقد حقّق الطبري بمنهجه معنى البحث التاريخي حيث فتحه على كلّ العقول المتعاقبة، والمناهج المتجدّدة، ووضعنا في أتون البحث التاريخي بإسدائه المقاربة التوثيقية لروايات التاريخ، وجعل مدوّنه

عرضة للكتابة التاريخية منهجا، وبحثا، وتوثيقا.

لقد صار الطبري بمدوّنه مادّة التاريخ، في شخصه، وفي منهجه، وفي نسق مروياته التي تنتظم وثائق عن عصره، وعن العصور التي سبقته. لقد حقّق التوجّه الحديث في مباشرة التاريخ من خلال أشكلة تمثّل الماضي، التي لا تستوي فيها المسافات بين التدوين واسترداد الحدث من الذاكرة الكامنة وراء النص، إلاّ بعد أن يتأسّس الأرشيف.

إنّ الوعي المنهجي الذي اكتسبه الطبري من موسوعية في المعارف، وتعمّق في البحث الفقهي جعله يتفادى إشكالات سيكولوجية وذاتية أثّرت في كثير غيره، حينما حاول التاريخ بتمثّلات لم تحمل آفاقها المرئي من التطوّرات المنهجية داخل القيم المعرفية التي يحاولها. وغابت قيمة الزمن المحتوي للفعل التاريخي حيث التطوّر والتحوّل من مشكّلاته.

الهوامش

1- الجوهري إسماعيل بن حمّاد (393هـ/ 1003م): **الصحاح**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، ط 03، دار العلم للملايين، بيروت 1404هـ/ 1984م، ج 01، ص 418.

2 - يستقر عندي أنّ للتاريخ الصفة الزمنية، والمكانية، والجنسية. وفي مثل هذه الحال يكون الربط بين اللفظ والجنس نوعا من التاريخ. وكذا ربط الألفاظ بثقافات معيّنة. والدراسات العلمية في معظمها قائمة على معرفة العلاقات بين المعطى والموضوع، وبين السبب والمسبّب، وبين علّة والمعلول. ولعلّ الدراسات الحديثة المسمّاة Paleolinguistiques تنحى هذا الاتجاه، حيث تحفر في اللفظ وفي بيئته الثقافية، وفي تاريخيته، لتصل منه إلى دراسة الإنسان كوجود يعبّر عنه اللفظ. وقد حقّقت نتائج مهمّة للمؤرّخين. أنظر:

Randels W.G.L : La civilisation bantou, son essor et son déclin, in : A E S, Paris 1974, V 29, N° 02, p : 270. و

Joseph (Vendryes): **Le langage : Introduction linguistique à l'histoire**, La naissance du livre, Paris 1921, pp 6-7

3 - أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (540هـ/1145م): **المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم**، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، ط 02، دار الكتب، القاهرة 1389هـ/ 1969م، صفحات 137-138.

4 - أحمد بن فارس أبو الحسين بن زكريا(395هـ/1004م): **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمّد هارون، د ط، دار الفكر العربي، بيروت، ج 01، ص 94. و في موضع آخر قال: "تاريخ الكتاب كلمة معرّبة"، ولم يزد على ذلك، أنظر: أحمد بن فارس أبو الحسين بن زكريا: **مجمل اللغة**، تحقيق: زهير عند المحسن سلطان، ط 02، مؤسّسة الرسالة، بيروت 1406هـ/ 1986م، ج 01، ص 94.

5 - ابن منظور محمّد بن مكرم(711هـ/1211م): **لسان العرب**، د ط، دار المعارف، القاهرة د ت، ج 01، ص 58.

6 محمّد مرتضى الزبيدي(1205هـ/1790م): **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج، د ط، مطبعة حكومة الكويت، الكويت 1385هـ/ 1965م، ج 01، صفحات 5-9.

7 - نفسه، ج 01، صفحات 225-226.

8 - استطاعت هذه الحركة أن تهيمن على توجّهات المعرفة، وذلك لمقدّماتها الأصولية في بناء المعرفة.

9 - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي(764هـ/ 1363م): **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرنؤوط و تركي مصطفى، ط 01، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1420هـ/ 2000م، ج 01، صفحات 25-54.

10 - من المعلوم أنّ كلّ العلوم تبدأ بهذا التأسيس.

11 - جلال الدين السيوطي: الشماريخ في علم التاريخ، تحقيق عبد الرحمان حسن محمود، د ط، مكتبة الآداب، القاهرة 1411هـ/ 1991م، ص 06.

12 - نفسه، ص 17.

13 - قاسم عبدو قاسم: **الرؤية الحضارية للتاريخ**، دار المعارف، ط 02، القاهرة 1985، ص 110.

14 شمس الدين محمّد بن عبد الرحمان السخّاوي(902هـ/1497م): **الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ**، دار الجيل، ط 01، بيروت 1413هـ/1992م، ص 07.

15 - السخّاوي، المصدر السابق، ص 07.

16 - يرى أحد الباحثين أنّ السخّاوي كرّس كتابه للدفاع عن التاريخ، و أنّه كان مهتمّا بالنواحي المنهجية، وهذا لا يخالف ما طرحنا، فالفرق بيننا أنّه تناول السياقات بكمّها، وتناولناها بقيمها المعرفية. أنظر: قاسم عبدو قاسم: في تطوّر الفكر التاريخي، دار عين، ط 01، القاهرة 2004، ص 132.

17 - الشعر ديوان العرب الذي حمل إلينا أخبارهم، و تقاليدهم، و مناحي حياتهم.

18 - Danièle Voldman : L'histoire orale entre science et conscience, in Revue d'histoire, Paris 1990, V 25, N° 01, pp : 113-115.

19 - Luc Messanvi Garcia : Archives et traditions orales, in Cahiers d'études africainesParis 1976, V 16, N° 61, p : 189.

20 - نلمح إلى أنّ ما ذكرنا من المؤرّخين هو محلّ المثال، و إنّما اقتصرنا على هذا العدد حتّى لا يطول بنا الكلام المحدود بمنهج البحث.

21 - خليفة بن خياط(240هـ/854م): **تاريخ خليفة بن خيّاط**، تحقيق: سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت 1414هـ/ 1993، ص 23.

22 - أنظر مثلا: تاريخ خليفة بن خيّاط، ص: 30، و ص: 74، ص: 299. والكتاب في أغلبه على هذا المنوال

23 - نفسه، ص: 154، و ص: 274، ص: 366. و لم يسند ما ذكر إلى أحد بل جعلها على شكل تقريرات.

24 - محمّد بن جرير أبو جعفر الطبري(310هـ/923م): **تاريخ الأمم و الملوك**، مراجعة: نواف الجرّاح، دار صادر،الطبعة الأولى، بيروت 1424هـ/2003م، ج 01، ص 02.

25 - الطبري، المصدر السابق، ج: 01، ص: 02.

26 - نفسه.

27 - عماد الدين خليل: **في التاريخ الإسلامي- فصول في المنهج و التحليل**-، دار المكتب الإسلامي، ط 01، بيروت 1401هـ/1981م، ص 116.

28 - المرجع السابق، ص 116. و يحيى بن إبراهيم بن علي اليحيى: **مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري**، دار العاصمة، الرياض، د ت، ص: 13.

29 - فؤاد بوقجيج: منهج النقد الحديثي وأثره على التاريخ واللغة، الإحياء، ع 19، الرباط 2003، ص 177.

30 - بشار عواد معروف: "مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ"، مجلّة الأقلام، ج 05، س 01، بغداد 1384هـ، ص 25.

31 - مرغوليوث: **دراسات عن المؤرّخين العرب**، ترجمة حسين نصّار، ط 01، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2001، ص 106.

32 - تاج الدين عبد الوهّاب بن علي السبكي: **قاعدة في المؤرّخين**، ضمن أربع رسائل في علوم الحديث، تحقيق عبد الفتّاح أبوغدّة، ط 05، دار البشائر الإسلامية، بيروت 1410هـ/ 1990م، ص 66.

33 - الحسيني عبد المجيد هاشم: **الإمام البخاري محدّثا وفقيها**، د ط، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، د ت، ص 236.

34 - أجد ارتباكا كبيرا عند الذين كتبوا عن الطبري، ففي الوقت الذي يؤكّدون على منهج المحدّثين في كتابه، ينسبون إليه التساهل في تقبّل الأخبار، و هذا لا يناسب المنهج الذي أوردوا، و أرى أنّ الخلل عندهم من عدم فهم سياقات التكوين المعرفي.

35 - أبو سفيان مصطفى باحو: **العلّة و أجناسها عند المحدّثين**، دار الضياء، ط 01، طنطا، مصر، 1426هـ/ 2005م، صفحات 53-57.

36 قاسم عبدو قاسم: **تطوّر منهج البحث في الدراسات التاريخية**، دار العين، ط 01، القاهرة 2000، ص 135.

37 - التحليل الإبستمولوجي في سياقات المدوّنات يفضي إلى بيان مركزية الرواية في البناءات المعرفية، حيث الرواية مؤطّر المعرفة بالمعنى التأسيسي. للدلالة على ذلك، أنظر:

أبو عبد الله محمّد بن عمر الواقدي(ت 207هـ/823م): **كتاب المغازي**، تحقيق: مارسدن جونس،ط 03، عالم الكتب، بيروت 1404هـ/1984م، ج 01، ص 01. وفيها يلحظ الباحث أنّ الكاتب يولج القارئ إلى أحداث التاريخ بقالب الرواية التي طبعت الثقافة العربية إلى تلك الحقبة.

38 - أقصد بها رواية الشعر والأيّام التي عرفها العرب قبل الإسلام، و استصحبوها بعد ذلك إذ كانت من موروثهم الثقافي. قال الجاحظ: "رؤساء المعتزلة المذكورون كلّهم كان راوية عالما، إلاّ معمرا، و كان بشر بن المعتمر أرواهم للشعر خاصّة". أنظر:

أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري(538هـ/1144م): **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، تحقيق: عبد الأمير مهنا، ط 01، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1410هـ/1992م، ج 04، ص 54.

39 - علي أحمد: **تاريخ الفكر العربي الإسلامي**، منشورات جامعة حلب، سوريا 1418هـ/ 1997م، ص 84.

وأرى أنّ هذا التوصيف لا يجعل الطبري في كبار المحدّثين، ولا كتابه في المساند، والجوامع الصحيحة.

40 - يجب أن يكون المؤرّخ على دراية بمناهج تحقيق الخبر عند المسلمين، وأن يطّلع على علومهم ومدوّناتهم، حتّى لا يخلط بين إيراد الخبر وتحقيقه. وللمقاربة السريعة أنظر:
وليد نويهض: **أسس الوعي التاريخي عند المسلمين**، ط 01، دار ابن حزم، بيروت 1419هـ/ 1998م، صفحات 152-155.

41 - يضاهي منهج النقد عند المحدّثين المناهج المعاصرة، بل يفوقها لما حقّقه من أسس، و قواعد. وهو علم تامّ، وفي بعض اتّجاهاته تبحث علوم المناهج الحديثة. أنظر بعض هذا في:
أكرم العمري: منهج النقد عند المحدّثين مقارنا بالميثودولوجيا الغربية، مجلّة مركز بحوث السنة و السيرة، الدوحة 1408هـ/ 1988م، ع 03، صفحات 109-134.

42 - يحاول بعضهم كتابة التاريخ بمنهج المحدّثين، ويتبنّون أصول الجرح والتعديل منهجا مقوّما للروايات. وهذا لا يستقيم مع توجّهات التاريخ، اللهمّ إلاّ ما يخصّ عصر الصحابة، لخصوصية المرحلة الدينية، والتاريخية. ومع ذلك يحتاج إلى تدقيق ابستمولوجي في المنهج المحقّق للرواية، لا يمكن أن يتّفق حوله الطرفان المتظاهران بالرؤى.

43 - في معرفة منهج أهل الحديث، و خصوصا البخاري، أنظر:
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (852هـ/1449م): **هدي الساري مقدّمة فتح الباري**، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمّد الفاريابي، دار طيبة، الرياض.

44 - أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري: الجامع الصحيح، د ط، دار الفكر، بيروت، د ت، ج 01، ص 03. و لتحرير ذلك في الفهم، ينظر:
شبير أحمد العثماني: **موسوعة فتح الملهم، تخريج: نور البشر بن نور الحق**، ط 01، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1426هـ/ 2006م، ج 01، ص 311 وما بعدها.

45 - محمّد مصطفى الأعظمي: **منهج النقد عند المحدّثين، نشأته وتاريخه**، ط 03، مكتبة الكوثر، السعودية 1410هـ/ 1990م، ص 102.

46 - أبو بكر محمّد بن موسى الحازمي: **شروط الأئمّة الستّة**، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت 1405هـ/ 1984م، ص 17.
وقد قورن منهج البخاري في تحرّي الحدث بالمناهج الأوروبية الحديثة، وتبيّن أنّه سبق بقواعده المدارس التاريخية الحديثة. أنظر:
الحسيني عبد المجيد هاشم، المرجع السابق، صفحات 255-266.

47 - أبو علي الحسين بن محمّد الغسّاني الجيّاني(498هـ/1104م): **تقييد المهمل وتمييز المشكل**، تحقيق: علي بن محمّد عمران ومحمّد عزيز شمس، ط 01، دار عالم الفوائد، المملكة العربية السعودية 1421هـ/ 2000م، م 01، ص 14.

48 - أبو عبد الرحمان بن شعيب النسائي: **سنن النسائي**، د ط، دار الكتاب العربي، بيروت د ت، م 01، ص 04.

49 - قد يعترض على هذا بما جاء من أحاديث ضعيفة عند بعض المحدّثين، و إنّما كان ذلك عند الطبقة الثالثة من المحدّثين، وقد قصدوا إلى جمع ما وجدوا من دون تلخيص، و لا تهذيب. و المعوّل في نهج القوم على الطبقتين الأولى و الثانية. أنظر:
أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي: **غاية المقصود في شرح سنن أبي داود**، إشراف: محمّد إلياس عبد القادر، د 01، حديث آكادمى نشاط آباد، كراتشي، باكستان 1414هـ/، م 01، ص 28.

50 - أنظر: أبو عيسى الترمذي: **صحيح الترمذي**، د ط، دار الكتاب العربي، بيروت د ت.

51 - يوسف بن محمّد الدخيل: سؤالات الترمذي للبخاري، ط 01، مطبوعات الجامعة الإسلامية، المدينة المنوّرة 1424هـ/ 2003م، ج 01، ص 169.

52 - محمّد أبوزهرة: **مالك- حياته وعصره-آراؤه وفقهه**، د ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د ت، ص 194.

53 - عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي(ت 911هـ/ 1505م): **تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك**، مخطوط جامعة الرياض، رقم 922/ ت*ج، لوحة 23 يمين.

54 - محمّد أبوزهرة، المرجع السابق، ص 194.

55 - الطاهر الأزهر الخذيريّ: **المدخل إلى موطّإ مالك بن أنس**، ط 01، مكتب الشؤون الفنّية، الكويت 1429هـ/ 2008م،ص 43.

56 - نفسه.

57 - الطاهر الأزهر الخذيريّ، المرجع السابق، ص 43.

58 - يوسف بن عبد البر أبو عمر(ت463ه/1071م): **الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء**، تحقيق عبد الفتّاح أبو غدّة، ط 01، دار البشائر الإسلامية، بيروت 1417ه/ 1997م، ص 47.

59 - عياض بن موسى اليحصبي القاضي(ت544ه/1149م): **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق محمّد سالم هاشم، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت 1418ه/ 1998م، ج 01، ص 74.

60 - محمّد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 195.

61 - ورغم ورود الأحاديث الضعيفة عند المحدّثين، إلاّ أنّهم صاغوا القواعد العلمية للصناعة الحديثية لتدارك ضبط المسانيد، والجوامع. أنظر مثالا على تطبيق هذه القواعد للاستدراك:
أحمد بن علي بن محمّد بن حجر العسقلاني: **تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمّة الأربعة**، تحقيق: إكرام الله إمداد الحق، ط 01، دار البشائر الإسلامية، بيروت 1416ه/ 1996م. و فيه الكلام على موضعية الراوي في كتبهم.
محمّد ناصر الدين الألباني: **صحيح سنن أبي داود**، ط 01، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرياض 1419ه/ 1998م. و فيه الكلام على التصحيح و التضعيف وفق سننهم في التثبّت من السند و المتن.

62 - جوزيف داهموس: **سبعة مؤرّخين في العصور الوسطى**، ترجمة: محمّد فتحي الشاعر،د ط، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة 1989، ص 94.

63 - أقصد على منهج المحدّثين الثقات، كالبخاري، ومسلم، و أحمد، وغيرهم، من الذين باشروا التأليف.

64 - محمّد بن طاهر البرزنجي: **صحيح وضعيف تاريخ الطبري**، دار ابن كثير، ط 01، دمشق، 1428هـ/2007م، م 01، صفحات 110-113. وحسين مؤنس: **تنقية أصول التاريخ الإسلامي**، دار الرشاد، ط 01، القاهرة 1417هـ/1997م، صفحات 07-13.

65 - يرى أحد الباحثين أنّ الطبري تعمّد ذكر الباطل من الروايات ليكشف عن نفسه بوهي سنده ومتنه. أنظر: محمّد أمحزون: **تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدّثين**، مكتبة الكوثر، ط 01، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1415هـ/1994م، ج 01، ص 20.

66 - مصطفى شاكر: **التاريخ العربي والمؤرّخون**،دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت، 1987، ج 01، ص 259.

67 - الذي أنكره على الباحثين، أنّهم جعلوا هذا المبدأ صبغة للاشتغال بالحديث. فإذا كانت العهدة على الراوي تصنع المحدّث فالكلّ يصير محدّثا. كما أنّ مقدّمة الطبري تحتاج إلى فرز ابستمولوجي يعيد تكوير نصوصه في مؤلّفه على قاعدته ليستبين منهجه، تماما مثل ابن خلدون بين منصوصه في عبره، وتنظيره في مقدّمته.

68 - عثمان موافي: **منهج النقد التاريخي عند المسلمين والمنهج الأوروبي**، مؤسّسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، د ت، ص 206.

69 - الجرح هو الطعن في راوي الحديث بما يسلب أو يخلّ بعدالته وضبطه، والعدالة هي تزكية الراوي والحكم عليه بأنّه عدل أو ضابط. وعلم الجرح والتعديل ميزان رجال الرواية. انظر: نور الدين عتر: **منهج النقد في علوم الحديث**، دار الفكر المعاصر، ط 03، دمشق 1418هـ/ 1997م، ص 92.

70 - النقد حضور المؤرّخ فيما يروي، والمؤرّخ حين ينقد يزايل الراوي. أنظر في معاني هذا:
Robert (Descimon), Plusieurs histoires dans l'histoire littéraire, in : Annales. Histoire, Sciences Sociales, Paris 2000,V 55, No 05, p: 1111.

71 - أرى أنّ ابن تغري بردي وهو من مؤرّخي القرن التاسع يمثّل نموذجا للطبري أكثر من غيره حينما يقول: "وأجمع في ذلك أقوال من اختلف من المؤرّخين وأهل الأخبار وأربابها، وذلك بعد اتّصال سندي إلى من لي عنه منهم رواية، ليجمع الواقف عليه بين صحّة النقل والدراية".
جمال الدين يوسف بن تغري بردي(ت 874ه/ 1470م): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، د ط، المؤسّسة المصرية العامّة، القاهرة، د ت، ج 01، ص 02.

72 - محمّد بن إدريس الشافعي(204ه/819م): **الرسالة**، تحقيق أحمد محمّد شاكر، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، صفحات 370-372.

73 - الطبري: المصدر السابق، ج 04، ص 1496.

74 - روى عنه في 214 موضعا.

75 - محمّد بن أحمد شمس الدين الذهبي(748ه/1348م): **ميزات الاعتدال**، تحقيق علي محمّد البجاوي، د ط، دار المعرفة، بيروت، د ت، م 02، ص 275. وابن حجر: لسان الميزان، ج 04، ص 247.

76 - ذكره في 124 موضعا.

77 - لم أجد له ذكرا في كتبهم.

78 - روى عنه في 226 موضعا.

79 - أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمان النسائي(303ه/915م): **كتاب الضعفاء والمتروكين**، تحقيق بوران الضنّاوي وكمال يوسف الحوت، ط 01، مؤسّسة الكتب الثقافية، بيروت 1405ه/ 1985، ص 123. ومحمّد بن عمر أبو جعفر العقيلي(322ه/933م): **كتاب الضعفاء**، تحقيق حمدي بن عبد المجيد بن إسماعيل السلفي، ط 01، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض 1420ه/ 2000م، ص 548.

80 - عبد الرحمان بن أبي حاتم أبو محمّد(327ه/938م): **كتاب الجرح والتعديل**، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ق 01، م 02، ص 278. وعلي بن عمر بن أحمد الدارقطني(385ه/995م): **كتاب الضعفاء والمتروكين**، تحقيق محمّد بن لطفي الصبّاغ، ط 01، المكتب الإسلامي، بيروت 1400ه/ 1980م، ص 149.

81 - محمّد بن أحمد شمس الدين الذهبي(748ه/1348م): **المغني في الضعفاء**، تحقيق نور الدين عتر، د ط، مطبوعات إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، د ت، ج 01، ص 419.

82 - الذهبي: ميزان الاعتدال، م 02، ص 255.

83 - عبد الرحمان بن علي أبو الفرج ابن الجوزي(ت597ه/1201م): **كتاب الضعفاء والمتروكين**، تحقيق أبو الفدا عبد الله القاضي، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت 1406ه/ 1986م، ص 35.

84 - جمال الدين يوسف أبوالحجّاج المزّي(742ه/1341م): **تهذيب الكمال**، تحقيق بشّار عوّاد معروف، ط 01، مؤسّسة الرسالة، بيروت 1408ه/ 1988م، م 12، ص 326. وأحمد بن علي بن حجر العسقلاني: **تهذيب التهذيب**، ط 01، مطبعة دار المعارف النظامية، الهند 1325ه، ج 04، ص 296.

85 - محمّد بن حبّان أبو حاتم(354ه/ 965م): **كتاب المجروحين من المحدّثين**، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط 01، دار الصميعي، الرياض 1420ه/ 2000م، م 02، ص 439. والذهبي: **ديوان الضعفاء والمتروكين وخلق من المجهولين وثقات فيهم لين**، تحقيق حمّاد بن محمّد الأنصاري، ط 02،مكتبة النهضة الحديثة، مكّة 1387ه/ 1967م، ص 183.

86 - الذهبي: ميزان الاعتدال، م 02، ص 255.

87 - نسبة إلى الأخبار، اشتقّت من الجمع حتّى لا تلتبس بالمعنى الأدبي، ويكون دلالة على توجّه منهجي في تناول الحدث.

88 - Abdesselam(Gheddadi) : A l'aube de l'historiographie arabo-musulmane : la mémoire islamique , in : Studia Islamica, Paris , N° 74, p 31.

89 - يروي عن السري الراوي، وطلحة بن الأعلم الحنفي الراوي، وشعيب بن إبراهيم التميمي الراوي، وغيرهم.

90 - أنظر مرتضى العسكري: **عبد الله بن سبإ وأساطير أخرى**، ط 04، دار الكتب، بيروت 1393ه/ 1973م.

91 - ذكر بعضهم مثل هذا في مقدّمة كتابه، و لم يجعل في زمرة المحدّثين. أنظر:
جمال الدين يوسف بن تغري بردي(ت 874ه/ 1470م): **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، تحقيق: محمّد محمّد أمين، د ط، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة 1984، ج 01، ص 19.

92 - جواد علي: موارد تاريخ الطبري: مجلّة المجمع العلمي العراقي، بغداد، أيلول/ سبتمبر 1369هـ/1950م، م 01،ع 01، ص 149.

93 - عبد الرحمان بدوي: هردر منصف العرب في القرن الثامن عشر، العربي، الكويت، كانون ثان، 1984، ع 302، ص 62.

94 - حسين نصّار: **نشأة التدوين التاريخي عند العرب**، د ط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د ت، ص 06.

95 - ما زلنا نراوح في كتابة تراكمية أصلها رواية مختارة وبناؤها أدب تكويني حول حدث لا نلامس فيه غير تحرير الزمان والمكان في أغلب الأحيان، وما زال التحليل القائم بالمنهج ينقصنا في كثير من دراساتنا.

96 - أرى أنّ علماء الحديث هم صورة العلمية المدقّقة بالمنهج في ذلك العصر.

97 - محمّد عبد الغني حسن: **التاريخ عند المسلمين**، د ط، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص 30.

98 - وجيه كوثراني: **الذاكرة و التاريخ في القرن العشرين الطويل**، ط 01، دار الطليعة، بيروت 2000، ص 56.
99 - ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي(852هـ/1449م): **لسان الميزان**، تحقيق: عبد الفتّاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط 01، بيروت 1423هـ/ 2002م، م 07، ص 25. والذهبي: ميزان الاعتدال، م 03، ص 499.
100 - أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي(463هـ/1072م): **تاريخ بغداد**،دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ت، م 02، ص 163.
101- محمّد بن أحمد شمس الدين الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: أكرم البوشي، مؤسّسة الرسالة، ط 02، بيروت 1404هـ/1984م، م 14، ص 273.
102 - الخطيب البغدادي، المصدر السابق، م 02، ص 163.
103 - الذهبي، سير أعلام النبلاء ، م 14، ص 273.
104 - الخطيب البغدادي، المصدر السابق، م 02، ص 273.
105 - كثيرة هي الدراسات التي تناولت مروياته بالنقد، أنظر، عبد العزيز بن سليمان ناصر السلومي: مرويات عوانة بن الحكم في تاريخ الطبري مقارنة و نقدا، رسالة مرقونة، قسم التاريخ كلية الدعوة و أصول الدين، الجامعة الإسلامية، المدينة المنوّرة، المملكة العربية السعودية، 1410هـ/1989م
106 - محمّد أحمد ترحيني: **المؤرّخون والتأريخ عند العرب**، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت د ت، ص 83.
107 - سيتبيّن فيما يستقبلنا من الدراسة أنّ الرواية أساس التاريخ الإسلامي، ولكن ضمن منظومة متكاملة من المادّة، والمنهج، والرؤى.
108 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج 01،ص 260.
109 - استعمل هذا الاشتقاق لكي لا يحدث الالتباس على القارئ فيختلط مفهوم الرواية الأدبية بمفهوم الرواية التاريخية.
110 - ألفت الانتباه إلى أنّ ذهنية الطبري المؤرّخ غير ذهنية الطبري المفسّر، أو الطبري الفقيه، و لكن بخصوصية التناول المنهجي لتحريره العلمي، مع وجود التأثير الذي تفرضه طبيعة العلوم المتساعدة.
111 - ديفيد هينج: **التأريخ الشفهي**، ترجمة: ميلاد المقرحي، مركز دراسة جهاد الليبيين ضدّ الغزو الإيطالي، ليبيا 1991، ص 33.
112 - أتحفّظ على هذا الإطلاق لأنّني أومن أنّ كلّ مؤرّخ له خصوصيته في العصر الذي ظهر فيه، و كلّ مؤرّخ له من السبق في ناحية معيّنة.
113 - أفهم أنّه من الروّاد الذين فقهوا معنى التوثيق ودوره في كتابة التاريخ. وبهذا سبق المدارس الغربية التي تتبنّى الوثيقة مبدأ راسخا في محاولة التاريخ.
114 - الطبري هو أوّل من أبعد اختياراته و تفسيراته حتّى يفسح مجال الدراسة لغيره، و هذه أمانته في نقوله إلينا مادّة التاريخ الإسلامي و وثيقته، المتمثّلة في روايات الأحداث.
115 - كرم خلّه: **النظرية الكونية للتاريخ**، ط 01، دار العلم و العمل للنشر، هامبورج، ألمانيا 1996، ص 22.
116 - أزعم أنّ الذهنية الفقهية التي يتمتّع بها الطبري من حيث كونه مجتهدا، هي التي أسلمته إلى معرفة قيمة الوثيقة في منصوص التاريخ.
117 - هذه المرحلة تأسّست على اعتمادها مدرسة قائمة بذاتها.
118 - مع نسبية ملحوظة، كانت بعضا من منهج تحقيق الرواية عند المحدّثين.
119 - من المعلوم أنّ كلّ أرشيف يعتمد تصنيفا معيّنا، بل إنّ علوم التوثيق مناهج علمها التصنيف.
120 - علي بن الحسين أبو الحسن المسعودي(346هـ/ 957م): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**،تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، ط 05، دار الرشاد الحديثة، بيروت 1393هـ/1973م، ج 01، ص 15.
121 - أجزم أنّ المقاربة الابستمولوجية لمقدّمته القصيرة تؤكّد على فهمه العميق للتوثيق، وإدراكه أنّ البحث التاريخي اجتهاد مثل اجتهاد الفقهاء، لا يغني اجتهاد أحدهم عن الآخر، وكلّ اجتهاد هو نصّ للذي يليه.